كتاب الشيطان

تأليف امين الريحاني

يعنى الكاتب الكبير امين الريحاني ، بوضع كتاب يضمنه على لسان « الشيطان » لباب ما خبره من شؤون الافراد والامم ، مفرغاً في قالب من النقد والتهكم يغري بالقراءة ويحمل على التفكير والتأمل . والريحاني رجل مستقل التفكير ، يعتمد الاصلاح وقد وعى من اخبار الامم وعبر التاريخ وحكمة المتقدمين والمتأخرين وآيات الادب القديم والحديث ، ما يجعل كلامه جديراً بكل عناية واحترام ، تشهد بذلك كتبه السائرة في اللغتين العربية والانكليزية . و« المقتطف » يسره ان يقدم الى قرائه هذا الفصل وهو الاول من « كتاب الشيطان »

كانت المدينة ملتحفةً بلحاف كثيف من الليل . وكانت ال « بُصّات[1] » التي لا تنام تسير الهوينا في تلك الساعة ، كأنها تمشي في حلم ، وتهدر ثم تئن كأنها الشبح في رواية هَمْلِت

ورأيت من نافذتي نوراً ضئيلاً متحركاً في المتحف البريطاني الذي كنت اسكن في جواره . رأيته ينتقل من دار الى دار في ذلك المتحف ، ورأيته يخرج من احدى نوافذه ، ويطفو بين البيوت وفوقها ، وهو يترجرج ويزداد ضياء

رجعت تلك الليلة متأخراً من وليمة في النادي ، وكنت لا ازال افكر ، وأنا انظر الى المصابيح الكهربائي خارجاً ، في كلمة قالها احد الاعضاء في ما للشيطان من الاثر الفعّال في تعقيد مشاكل العالم الحاضرة ، وخصوصاً منها المشاكل الجنسية بين الرجل والمرأة

ولكن ذلك النور شغلني وقطع عليّ فكري . رأيته يدنو من البيت الذي اقيم به . فركت عيني وأنا اظنني في خدعة من خدعات البصر ، فكذّب النور ظني ، وهو يدنو مني . هاكه امام النافذة . هاكه في الغرفة . هاكه على الكرسي — يتجسم ويخيف

لست ممن تتراءى لهم الاشباح ، ولست ممن يخدعون بالخيالات . وما كان ما رأيت شبحاً او خيالاً . رأيت امامي رجلاً في ثوب « لندني » انيق ، يجلس في ذلك الكرسي جلسة الزائر الكريم ، ويحيي ، ويدد على رأسه ، تحيةً طيبة

(١) واحدها بص اي سيارة كبيرة للنقل auto-bus

حاولت ان اخفي ما عراني من اضطراب ، وحاولت ان اجاريه في تأدُّبه فقلت : « وهو بتفضل سيدي فيزيدني علماً بشخصه الكريم »

فقال وهو يبتسم ابتسامة مؤنسة مغرية : « قد التقينا صدفةً بضع مرات . انا الشيطان خادمك المطيع المخلص »

— « عجيب . وما الذي تبتغيه الآن مني ؟ »

— « تمنك تناديني وتدعوني اليك »

— « ما دعوتك دعوة رسمية . انما كنت افكر فيك . وكنا في النادي ، هذه الليلة ، نتحدث بشأنك »

— « جميل منكم ذلك . فقد حان للناس وخصوصاً منهم المفكرين ، ان ينظروا اليَّ والى اعمالي نظرةً عقليةً صادقةً حرة »

فقلت بشيء من العطف : « اظن ان اشغالك وهمومك كثيرة في هذه الايام »

فقال وهو يمكّن جلسته : « الهموم لا تهم . اما الاشغال فهي كما قلت . اننا نجتاز في هذا الزمان دوراً سريعاً خطيراً في التطور البشري . وترى الانسان لذلك مضطرب البال ، حائراً جزعاً . تراه ، وقد فقد الفطنة والشجاعة ، يعود الى الخرافات ، الدينية منها والسياسية ، ويعتصم بها . بل تراه يخبط في الدُّجى وهو لا يدري بما دخل عليه من وهن وفساد . ان الله نفسه مضطرب البال من اجله . فهو يود ان يظل الانسان جريئاً نشيطاً مقداماً ، فياشي سنن الكون وسنن الحياة ، ولا يتقهقر ، ولا يهلع ، ولا يتكل كل الاتكال على القوى الالهية . وها هنا فسحة العمل ، عملي انا . إن عليَّ واجب التشجيع ، والتذكير ، والتحريض . وعليَّ ان اشعل في صدر الانسان نور الطموح كلما انطفأ ذلك النور . عليَّ انا ان اكمّل عمل الله فازيّن للانسان سبيل النشوء الدائم ، والارتقاء المستمر . عليَّ ان انبهه ، واستفزّه ، واحرضه ، واستغويه . وماذا يهم اذا خسر في طاعته لي معمل صابون ، او معمل اسلحة ؟ ماذا يهم اذا ذهبت في سبيلي الثروات والاساطيل والدول ؟ وما سبيلي غير سبيل رقيه وسعادته . فيجب عليَّ ان اساعده ليفهم ذلك ، وان استحثّه على العمل ، على السير ، على التصعيد في السبيل الاعلى . هذا هو شغلي . وما هو ، وحياتك ، بالشغل الهيّن اللين »

***

عندئذٍ اخرج من جيبه كيساً وغليوناً ، فملأ الغليون واشعله ، ثم قدم الكيس اليَّ قائلاً : « أتريد ان تجرب هذا التبغ ؟ » فملأت غليوني منه ، شاكراً لطف زائري ، وسألته ان يستأنف الحديث ، فقال وهو يدخن :

« ان خصمي عالمٌ من الجمود والخرافات . وعليَّ ان اتغلب عليه . عليَّ ان احرك كل جامد في نفس

الانسان ، وفي روح الامم ، وان اعمق كل اسباب السخافة ، وكل عوامل الفساد ، في حياة الانسان ، وحياة الامم . واني في عملي لجادٌّ ، واني فيه لمنتصر . فقد انتصرت حتى الآن في بضعة اماكن من هذا العالم المتألب عليّ : في الصين ، في روسيا ، في تركيا قد انتصرت انتصاراً باهراً . وكان لي بعض النصر في اميركا التي بدأت تدرك شيئاً من اغراضي . اما النصر الاكبر فسيكون ها هنا في هذه الجزائر البريطانية . اقول — ولا عار — الحقيقة كلها . فقد انهزمتُ في هذه الجزائر مراراً في الماضي وسأفوز لذلك فوزاً باهراً في المستقبل — المستقبل القريب

« قد يُظن ان قوتي هي دون قوى الشعب الانكليزي . وقد يصدق الظن ظاهراً . ولكني في الحقيقة مستحوذ على المصادر الاول لقواه : ان عقله وروحه في يدي . وهو يعلم ذلك ولا يجهر به . واعجب من هذا انهُ يجاريني ظاهراً ، ويستعين سرّاً بي في حروبه الاخرى ... ان في مؤسسات الانكليز العتيقة الكؤود . فلا طبيعية هي ، ولا قانونية . هي على ما يظهر مما وراء الطبيعة ، ومما دون القانون . تكاد تكون « متافيزيكية » لا جسم لها ، ولا روح ، مثل الشركات المالية والاحتكارية . تقاليد ونظم واصطلاحات ، وافانين في الاصطلاحات والنظم والتقاليد . وكلها لا ترى ، ولا تدرك في غير نتائجها — مثل الكهرباء . ولكنها لا تقوى عليّ . اقول ، لا تقوى عليّ . فقد يكون ركنها ، او احد اركانها ، في هذا البرلمان برلمانهم ، الشبيهة اعماله واقواله باعمال الرُسُل واقوالهم . تذكرني مناقشات البرلمان الانكليزي برسائل بولس الرسول . عقلٌ دقيق ، على حبل رقيق ، فوق وهدة عميقة تلفُّ لي مراقبته . وعندما يقع — وسيقع عاجلاً او آجلاً — اكون انا هناك للتأسية والنجاة »

***

وكان قد التفتَ عليه ، فاشملهُ ثانياً ، ثم قال : « وماذا تفعل انت في لندن ؟ » فقلت : « اني طالب علم . انشد المعرفة والحقيقة . ولا اكتمك اني مفتون بالانكليز . هم قوم انقياء قديسون . او ان وجوههم ، في الاقل ، هي كوجوه القديسين ، كما قال شاعرهم الاكبر . واني اراهم في كل حال يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر . بل اراهم ينصرون المظلومين من الشعوب ، ويدافعون عن المغبونات من الامم »

— « لا تزال مخيلتك شرقية »

— « ولكنني روّضتها في روضتين : روضة العلم الدرين ، وروضة الشك طبكسلي »

— « جميل ، جميل . انما استأذنك بكلمة . ارى ان الشك فيك دون العلم قوةً وسيراً . شكُّك كديش[1] — لا تؤاخذني — وعلمك جواد أصيل . ما لنا وهذا . وما لنا ورأيك بالانكليز . انما اقول لك — مستأذناً مستغفراً — انك تضيّع في لندن شيئاً كثيراً من وقتك ومن عواطفك . اراك تمشي في شارع بيكادلي ، والسبحة بيدك ، كأنك في رواق من اروقة الازهر . اراك تهيم على

(١) الكديش من الخيل غير الجواد الاصيل يمتهن بالركوب والحمل (محيط المحيط)

وجهك في غيشبرك ، وانت تنشد استعارة جديدة ، او قافية شريدة ، كأنك في بستان من بساتين دمشق . اراك تقف مأخوذاً في قلب المدينة ، بين البورص والبنك والراي ، وتدوّن في مذكراتك ما تراه من قوة الامبراطورية البريطانية وعظمتها واراك معجباً حتى بالمهرجانات الصبيانية التي يقيمونها باسم محافظ المدينة ، او باسم من حاول يوماً ان يلبس البرلمان . بل اراك ترد موارد المؤتمرات السياسية والاقتصادية والسامية وتتمشى في ظلال التعريفات الجركية والاعتزالات القومية ، فتردد صدى السفسطات السائرة ، والاضاليل الشائعة ، وتود ان تحمل منها الى الشرق رحمة ربه . ولكني رحمة بك ، انبهك ، واحذرك . فانك مثل كل القوميين المفكرين تفكر نصف تفكير . بل تقف في التفكير عند الجانب الذي يفيدك او يفيد قومك ويضر الآخرين . واراك مأخوذاً بما يسمونهُ النجاح المادي ، فتقيم له تمثالاً . وما النجاح برب يُعبَد »

— « انهُ ليدهشني هذا القول منك . انت الشيطان تحمل على النجاح المادي ، بل على المدنية نفسها ، هذه المدنية التي كنت اظن انها من صنع يدك »

— « انك في بعض ظنك مصيب . انا لست ضد النجاح المادي . ولست خصماً الرفاه الاجتماعي انما انا خصم اولئك الذين يجعلون من ثمار المدنية إرثاً عائليًّا او وطنيًّا . اني خصم الرفاه المحصور ، والبؤس المشاع . اني ارى بعيني الاثنتين . والناس لا يرون بغير العين الواحدة . وانت في هذا — لا تؤاخذني — من الناس . قد فقدت يا صديقي ، عيناً من عينيك ، وانا الآن اجيئك بها . انا الشيطان اعيد اليك عينك الاخرى . فهل تقبلها مني وتتبعني . هيا بنا . سأفتح لك ابواباً من الآبنوس المرصع بالذهب ، فتدخل بها الى عالم قصي شتي ، يدعى القلوب ويذيبها . البؤر — البؤر — بؤر الحياة — بؤر الوجود ، هذا ما يهمني الآن ويشغل بالي وقواي . بُؤرٌ تُرى ، وبؤر لا ترى . بُؤر تُذكر وبؤر يُعتمد ذكرها عيباً . بُؤر روائحها من المجارير ، وبُؤر أريجها من القوارير ، وبُؤر عنوانها البود والسافرسان . لا تخجل . لسنا سائرين الى حي الاشقياء ، او الى حي الاغنياء ، او الى مستوصف المدينة العام . انما نحن سائرون الى عالم آخر ، محبوسة فيهِ ارواح من يقيمون في مقاذر هذه الحياة : ارواح المخدوعين ، والمنبوذين ، والمقهورين ، والمصابين بالامراض الظاهرة والخفية . سأريك ضحايا السيارات البشرية كلها . سأريك الضحايا لما في العالم من القيود السياسية والدينية والاجتماعية ، فقد مررتَ امس بعض آثارها في المتحف البريطاني ، ولكنك ما رأيتَ غير ما كان امامك في صناديق الزجاج »

— « وهل كنت أنت في المتحف ؟ »

— « نعم . كنت هناك . اني اتردد على المتحف لاغراض شتى — لأنعش ذاكرتي ، لاستوحي آثار اعمالي ، ولأستريح في بعض الاحايين من عناء الاشغال . وقد رأيتك في دير وستمنستر ، نعم ، اني ازور ايضاً ذلك الدير واتزور كذلك بعض الكنائس ، كنيسة مار بولس العظيمة مثلاً ،

وكنيسة مار بطرس العظمى . انما غرضي من هذه الزيارات غير اغراض الناس . غرضي في اللاهوت القديم الذي ينبغي ان يمحق ، ان يستأصل تماماً . وقد باشرنا العمل ، وتقدمنا فيه ، أفما سمعت الواعظ المصري يعظ ويحدث ؟ ان في لندن اسقفاً محبوباً محترماً من المفكرين والمفكرات والمحررين والمحررات . فهل تعلم من اين تجيئه الآراء الجديدة ؟ هو نفسه لا يعلم . عجباً بنا »

ما ترددت في مصاحبته . ولكني ، وأنا ألبس معطفي ، رغبت في قليل من ذلك الذي ينشط القلوب وينعشها . ورأيت من الواجب علي ان اكرم زائري كما اكرمني ، فقلت . « وهل لك قبل ان نخرج من البيت ، بكأس من الوسكي ؟ » فقال . « لا بأس بالوسكي » وبين نحن نشرب الكأس الثانية قلت : « وبعد تفضلت بالجواب عن سؤالك الاخير ، أنا لا اعلم . والاسقف نفسه ، كما قلت ، لا يعلم . فمن أين يا ترى تجيئه الآراء الجديدة ؟ »

***

فابتسم ابتسامته اللطيفة وقال : « اني ازوره عند ما يكتب فاجلس الى جانبه . وازوره عند ما يخطب فأقف وراءه في المنبر . لا اقول انهُ يملي كل ما اوحي به اليه ، ولا اقول انهُ ينطق بكل ما أهمسه في قلبه . ولكنهُ باذلٌ جهده ، وجاهزٌ طاقته . فلا يلام في ما يفوته ، ولا في ما يتقيه . ان قلبه لفي المكان السليم . وهو مثل قلبي يذوب شفقةً وحناناً لدى مشاهدته الشقاء البشري . انما لا يعمن ، ولا يجرؤ ان يعمن في البحث عن الاسباب الاولية لذلك الشقاء . . . ولا يزال الواعظ العصري مقيداً ببعض التقاليد في ما يتعلق بي او بعيداً عن الحقيقة في ما يعتقده روح الزمان . فأما أنهُ ينكر وجودي بتاتاً ، واما انهُ يتمسك بظنه اني عدو الانسان ، بل عدو العالم . هو لا يدرك ان حقيقة الشر والارتقاء تشمل كل حي يُرى ولا يُرى في ذا الوجود بل هي تشمل الكون ، وأنا وأنت والواعظ والصفدع من الكون وفيه . الواعظ ، وان ادركوا هذه الحقيقة فانهم لا يجرؤون اليوم ان يجهروا بها من منابر كنائسهم

« أطلت الحديث . ولكني أقول لك — واسألك وانا اشرب هذه الكأس على صحتك ان تذكر كلامي — اقول لك ان البؤس والاحزان والآلام تخف رويداً رويداً لو كان الناس اعلم بي ، وادرك لحقيقة حالي . بل اقول اكثر من هذا . ان البؤس والاحزان والآلام تزول لو اعترف الناس بوجودي الاعلى ، وكانت لهم الجرأة ان ينصروني ويطيعوني . ولو فعل السياسيون ذلك لأفلحت مؤتمراتهم كلها . ولكن هذه المؤتمرات — مؤتمرات نزع السلاح ، ومؤتمرات السلام ، ومؤتمرات التعاون الاممي كلها لا تفيد اذا كان اربابها لا يصغون اليّ . فيكفرون بتقاليدهم القديمة وقوانينهم الدنيئة ، بل ينبذونها كلها . هي لديهم مقدسة . وهي في نظري وعلمي رأس الشرور وسبب الحروب ، ومصدر الآلام والاحزان . انا الشيطان اقول هذا وأنا الشيطان عامل عملي .

تلك الشرائع والتقاليد ، وتلك الانانيات الدولية ، التي سأعمل الى هدمها وسحقها لاستعبادها ولو تبعني واطاعني الناس لكنت اسرع عملي ، ولكانت الشعوب تفرض السلم فرضاً على الدول والحكومات اقول لو تبعني الناس لساد السلم ولساد العدل في العالم . حد البرهان . انت شرقي . وأنت عالم بالشرائع . وقد رأيت هناك طائفة من الاقدمين الصالحين ، وهم في الوداعة وكرم الاخلاق والمسالمة المثل الاعلى . هم من اتباعي . هم يعبدونني ، اجل يعبدون الشيطان . ولكنهم متقهقرون في أحوالهم الاجتماعية لأنهم اخطأوا الفهم والتفسير لوحيي . فقد اغرق اليزيديون في التعبُّد ، فحال ذلك دون تسعيدهم في سلم الارتقاء . انا لا اطلب العبادة ، ولا استحب التمجيد . اني انفر من الاثنين . ولا ارى في الهياكل والمعابد غير القيود التي تؤخر نمو الروح البشرية . ان رقي الانسان وسعادته في علمه وحريته . وأنا لا اطلب منهُ غير ان يعلم الحقيقة الشاملة المزدوجة ، ويعمل بعمله . هذا ما اريده منهُ ، وهذا ما يريده الله . انا والله . العفو ، العفو . الله وأنا . ولا تعجبنَّ لهذا القران . اظنك تعلم اني كنت مرة في خدمته تعالى . هي قصة قديمة لا فائدة من ترديدها . انما اقول ان تعاوننا في الزمان الاول قد يجدد في هذا الزمان . عفوك . قد اطلت الحديث »

***

كنا قد وصلنا الى المتحف البريطاني ، فدخلنا من مكان لا يفتح كما علمت لغير رفيقي وصحبه وبينما كنا نجتاز ردهة الاواني الخزفية في القسم الاغريقي ، ورواق الآثار الاشورية ، حدثني الرفيق الدليل في موضوع فني اجتماعي جليل ، فتطرق الى الرموز ومقامها في حياة الانسان ، فأشار الى الصفة البارزة في الاناء الذي يدعى أمفورا — جرَّة — وفي الصفة السائدة في الاسد الاشوري المجنح . ثم قال : « الجمال والقوة ، لا قيمة للحياة تذكر بدونهما »

وسرنا بعد ذلك الى ردهة القراءة ، تلك الردهة المستديرة ، تحت القبة الكبيرة . فأومأ الرفيق الى القبة ، فاذا هي تتدفق ، فتتدفق ، حتى بدت السماء من النرجة فيها . فقال وهو يبتسم ابتسامة مؤنسة مطمئنة : « هات يدك ، ولا تخف » ، ما خفت . وما دهشت ، ويده تضم يدي ، مما كان حتى من جرأتي . انما خيل اليَّ في البدء اني في سفح جبل . وكان الرفيق نفسه ذلك الجبل . بل كنت امامه ، وقد تمطى فلامس رأسه القبة ، كالتزم امام مارد من الجن . وظللت كذلك وأنا تارة على ركبته ، وطوراً على صدره ، حتى بلغت الكتف منهُ ، وأطللت على الفضاء — على النجوم

فشجعني بقوله ثانياً : « لا تخف » وكانت القبة قد انسدت تحتنا ، فمر لي ، اذ قبض ثانياً على يدي ، شيءٌ من الخوف . ثم احسست ان قلبي سقط في لحظة من بين جنبي ، وان جسمي قُذف كالقنبلة في الفضاء